عالم الخفافيش

استيقظت الخفافيش عندما غربت الشمس، وكانت هذه الحيوانات الغريبة التى تنفرد بين الثدييات بقدرتها على الطيران، قد قضت النهار كله نائمة كعادتها، داخل الكهف الصخرى الواقع على حافة الصحراء.

كانت المئات منها تتدلى من السقف فى صفوف متوازية، ورؤوسها إلى أسفل، أما أجسادها، فقد اختفت أسفل أجنحتها.

وعندما غادرت أماكنها، بسطت أجنحتها القصيرة العريضة، فكشفت هذه الأجنحة عن غشاء جلدى رقيق، يصل بين الأقدام الأمامية والخلفية والذيل.

ولم تكن هذه الأجنحة العجيبة تتيح لها التحليق أو الطيران لمسافات بعيدة، لكنها كانت كافية لتحقيق ما تطمح الخفافيش إلى تحقيقه من أهداف.

فعلى ارتفاع أمتار قليلة فوق سطح الأرض خيمت سحابة كثيفة من البعوض.

كان هذا التجمع من البعوض إيذانًا ببداية موسم تزاوجها. فكانت الإناث تنضم إلى الذكور، ثم لا تلبث أن تغادر الجمع، وقد اتحدت كل أنثى بذكر.

وخلال وقت وجيز، تلقحت بضع مئات من الإناث التى تعيش على دماء الإنسان والحيوان، وتنقل إليهما أخطر الأمراض.

وكان من الممكن أن يتم تلقيح مئات أخرى بل ألوف، لولا وصول الخفافيش التى انقضت على جموعه فى حمية، وهى تطوى أطراف أجنحتها؛ لتصنع جيوبًا صغيرة، تلتقط فيها الحشرات، ثم تثنى أجسادها الصغيرة، وتقترب أفواهها من الجيوب، فتلتهم ما تجمع بها من صيد.

ولم تستمر المذبحة طويلاً.

فقد التهمت الخفافيش أعدادًا غفيرة من البعوض فى لمح البصر، فى حين تفرقت أعداد أخرى وتوزعت فى شتى الاتجاهات فمنها ما هرع إلى قنوات الماء، ومنها ما لاذ بأعواد القصب أو بأوراق الأشجار.

وانطلقت الخفافيش فى أعقاب فلول البعوض الهاربة.

كانت تتحرك فى حرية؛ لأن الليل هو معاشها ووقت عملها، فأثناء النهار تتهددها القطط وأبو عروس، فضلاً عن الشمس التى تعرض أغشية الطيران الرقيقة للجفاف. أما فى الليل فلا تخشى الخفافيش غير البوم والناس.

البوم يهاجمها إذا أعوزته مصادر الغذاء الأخرى، والإنسان ينفر منها لسبب غير مفهوم،

ويطاردها، ويروج الأساطير والشائعات عنها، متجاهلاً ما تقدمه إليه من أجلِّ الخدمات.

ففضلاً عن أن الخفاش لا يتعلق بشعر الرأس أو ينقل الأمراض، كما يشيع الإنسان، فإنه يلتهم ملايين الحشرات فى حياته التى تستمر عشرين عامًا، أما الخفاش الذى يعيش على الفاكهة فلا يأكل سوى الثمار الموشكة على التلف. كما أنه لا يهضم البذور، ويتخلص منها كاملة أثناء الطيران، فيقدم للمزارعين معاونة قيمة.

وفى وقت وجيز، كانت الخفافيش قد قضت على بقايا البعوض، بعد أن اقتفت أثرها بسهولة شديدة.

فالخفافيش ترى جيدًا فى الظلام، وتملك فوق ذلك جهازًا مثيرًا، يمكنها من تحديد مواقع الأشياء بدقة.

فأثناء الطيران، تطلق نبضات صوتية قصيرة، بتردد لا تستطيع الأذن البشرية التقاطه؛ لأنه يفوق حدود التردد الذى تستقبله بخمسة أضعاف، وتستمر كل نبضة مدة جزء من الثانية.

وعندما تصدم هذه الموجات الصوتية بحشرة طائرة، يسمع الخفاش الصدى، فيحدد مكانها على الفور.

ولا تستطيع البعوضة التقاط هذا الصوت، مما يتيح للخفاش أن يقترب منها فى هدوء فلا تشعر باقترابه إلا بعد أن يكون الأوان قد فات.

بعد أن استطاعت الخفافيش أن تطهر المنطقة من أسراب البعوض واصلت حملتها ضد باقى أنواع الحشرات.

وعندما انجاب الظلام، وأوشكت الشمس على الشروق كانت الخفافيش قد التهمت عدة أطنان من مختلف الحشرات، واستولى عليها التعب، فعادت إلى مأواها فى الكهف.

تعلقت بسقفه فى صفوف متجاورة، ورؤوسها إلى أسفل، وانهمكت فى تنظيف نفسها، وضرب البعض منها الجدار بأقدامه، فتأرجح فى الهواء، ثم كرر الحركة حتى إذا صار فى وضع أفقى أخذ يتبرز.

وهنا وهناك، نشبت معارك مفاجئة -بين البعض- على المكان، يضرب الواحد خلالها زميله بالأجنحة، ويخمشه بالأظافر.

ثم هدأت حركتها بالتدريج، واستكانت للراحة.

وحانت لحظة الوضع لعدد من الإناث، فقوست أذنابها إلى أعلى -باتجاه بطونها- مكونة ما يشبه الكيس أو الحوض؛ لتتلقى فيه المولود الذى يتعلق بضرع أمه من الفور.

وعندما حلت ساعة الظهيرة، كانت قد استغرقت فى النوم واستغرق أولادها فى الرضاعة.

وخلال ذلك، تراكمت إفرازاتها فوق الأرض، وزحفت الصراصير فوقها، وانتشرت رائحة النشادر القوية فى أنحاء الكهف؛ وهى الظاهرة المسئولة -فى الغالب- عن كراهية الإنسان لهذا الحيوان المفيد والعجيب والغريب، وسبحان الله الخالق البارئ المصور وخالق جميع المخلوقات على غير مثال سابق.

وسبحان الله الفاطر الذى خلق كل أنواع الخفافيش وأودع فيها من عجيب الخلق وغريب الشأن ما لا يعد ولا يحصى حتى أنك تعجب كيف يطير الخفاش بلا ريش وكيف يطير، وهو يلد ولا يبيض، وكيف ينام معلقًا ورأسه إلى الأرض وقدماه إلى السماء، وكيف يلد وكيف يرضع صغاره وكيف... وكيف... وكيف... وإذا عرفنا قلنا سبحان الله وسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون.

مصطفى فايز

www.mostafafayez.com
www.farmcaring.com